العدد الرابع (يونيو 2015)

وحدة النسق في القرآن الكريم (سورة الحجرات أنموذجاً)

د. مفتاح علي المهدي محسن

مقدمة:

الحمد لله الذي أودع في كتابه الكريم العقيدة الصافية النقية؛ فأخرجنا من الظلمات، ونبهنا من الضلالات، وفصل فيه الأحكام الجامعة الكلية؛ فأرشدنا إلى المخرج من المعضلات، وحذرنا من موارد المهلكات، وقص علينا أحسن القصص إسوة لنا وعبرة، وصرّف فيه من الأمثال والحجج الدامغة؛ ما ألجم الأعداء، وأفحم الخصوم، ورد الشبهات، فبانت لنا بفضله الجادة السوية إلى السعادة الدنيوية، وهدانا بكرمه إلى السبيل المستقيم للفوز بدار النعيم الأبدية، وله الحمد والمنة؛ أن جعل القرآن الكريم حبله الذي طرفه بيده، وطرفه الآخر بأيدينا، وحثنا على الاعتصام به، والعمل بما جاء فيه؛ سيراً على الحق، وثباتاً عليه، ونهانا عن مخالفته ونبذه؛ صوناً من الضلال ورداً منه وإليه، ومن فضله وكرمه ورحمته؛ أن جعله معجزة خالدة على مر العصور؛ لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، غضاً طرياً يهدي للتي هي أحسن وأقوم، ويصف العلاج الأفضل، والدواء الأسلم، ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً؛ يليق بجلال وجهك؛ وعظيم سلطانك؛ أن يسّرت لطائفة من عبادك؛ تدبره وفهمه على مرادك؛ فاستنبطوا من آياته علومه وأحكامه؛ وكشفوا عن درر معانيه وأسراره؛ وكتبوا في ذلك وألفوا ما غصت به التفاسير والمصنفات؛ فكان لكل عصر ومصر طابعه وذوقه ومنهجه الذي تميّز به عن غيره، وانفرد به عما سواه، لكنها جميعاً تتآلف وتتحد وتتشابك وتتجه نحو أعلى غاية، وأسمى هدف: ألا وهو فهم كلامه– ﷻ– والعمل به، ونشر دينه، وإعلاء كلمته.

ولعل الاتجاه أو الطابع الذي تميز به هذا العصر في تدبر الكتاب الكريم؛ هو التفسير الموضوعي والوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، باعتباره زاوية نظر جديدة، لم يولها العلماء المتقدمون العناية التي أولوها لغيرها من الاتجاهات، وهذا الاتجاه يعتمد على دراسة نظم الآيات والسور الكريمة والموضوعات، وتآلفها وترابطها وتلاحمها في معاني كلية ومقاصد عامة؛ فمنه دراسة الوحدة الموضوعية للسورة من جهة نظمها آياتها، وإحكام بناء معانيها، وتناسق سياقاتها، وتلاحم موضوعاتها وتآلفها، وانسجامها مع أخواتها السور في الترتيب والنظم، واتحادها في المقاصد الكلية والغايات الجامعة للقرآن الكريم، ومنه دراسة الوحدة الموضوعية للآيات الكريمة الواردة في سور متفرقة.

وإذا كان اتجاه التفسير الموضوعي حديث الظهور، فإن دراسة النظم القرآني، والبحث في أسراره، نشأت مقارنة لنزول القرآن الكريم؛ ذلك أن البحث فيه كشف وبيان لإعجازه من جهة ما خصه الله به من: حسن التأليف، وبراعة الترتيب، والاختيار اللطيف، والإيجاز البديع، ولعل أول من وضع قواعد وأصولاً لمنهج دراسة النظم في القرآن الكريم: الجرجاني– رحمه الله– في كتابيه: أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، يقول في كتابه أسرار البلاغة: "واعلم أن غرضي من هذا الكلام الذي ابتدأته، والأساس الذي وضعته؛ أن أتوصّل إلى بيان

أمر المعاني، كيف تختلف وتتفق، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفصل أجناسها وأنْواعها، وأتتبّع خاصّها ومُشَاعَها، وأبين أحوالها"(1).

وجاء الفخر الرازي؛ فصنف في دراسة النظم كتابه: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ثم الباقلاني في كتابه الإعجاز؛ لكن جهود المتقدمين كانت منصبة على دراسة النظم والمناسبة، ولم تكن لهم جهود في الوحدة الموضوعية وإحكام النسق؛ اللهم إلا إشارات كانوا يوردونها تحت نكت بلاغية.

ولعل أول من أشار إلى الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم: السيوطي- رحمه الله- مهتدياً بوصفها في الأثر بفسطاط القرآن(2)، والفسطاط هو المدينة الجامعة، فقد كشف في كتابه تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور عن الارتباط بين سورة الفاتحة وسورة البقرة؛ ثم بين سورة البقرة الجامعة وبقية السور(3)، والذي كان الأساس لنظرية الوحدة الموضوعية للشيخ سعيد حوا- رحمه الله- ولمنهجه الذي سار عليه في تفسيره الذي وسمه بالأساس في التفسير.

إن الوحدة الموضوعية في النص ترتكز على إحكام النسق في أسلوب بنائه، الذي يعتمد على الدقة في اختيار الألفاظ وحسن توظيفها، وبراعة نسجها في جمل وسياقات، تضفي على التفسيرات جمالاً ووضوحاً؛ فتحدث أثراً في نفس السامع، هذا الأثر هو محصلة للإيقاع الصوتي، والمعنى اللفظي، والصورة البلاغية لتلك الألفاظ، ولقد بلغ القرآن الكريم منتهى الإحكام في الأنساق التعبيرية، وغاية الجمال فيها، وتمام الوضوح، فكان له بالغ الأثر في النفوس، وأشد التأثير في الأسماع، ليس في مصدقيه فحسب؛ بل حتى في منكريه وجاحديه؛ فقالوا حين عجزوا عن تحديه، وبان أثره وتأثيره فيهم: هذا سحر يؤثر، لا تسمعوا له، والغوا فيه، وقد أشار الدكتور محمود ديب الحاجي إلى أن هذا النسق العالي، والنظم المعجز، والمعنى المؤثر، تكاملت وتضافرت فيه أنساق؛ ففي تناسق إيقاعه انسجام وتناغم بين الصوت والمعنى، لا احتياج فيه للفاصلة أو القافية؛ لأنه ليس محسنا لفظياً وصوتياً؛ وإنما هو تناسق يخدم المضمون، ويحقق جمال الإيقاع في آن واحد، أما النسق في نظم الألفاظ؛ فدقة في الاختيار؛ تجعل اللفظ ذو قدرات ووظائف متعددة؛ تختلف وتتباين وتتنوع باختلاف التركيب والسياق، وأما نسق الصورة فهي في القرآن الكريم ليست بلاغية- فحسب- تخاطب الوجدان، وتلغي دور العقل، كما هو الحال عند الأدباء والشعراء؛ بل هي حقيقية تثير في النفس الإنسانية الخير والجمال معاً، كل هذه الأنساق مجتمعة تتشابك وتتكامل لتيسر تدبر النص الكريم وفهمه، وحفظه، والعمل به(4).

إن دراسة وحدة النسق في السورة القرآنية، من خلال أغراضها ومقاصدها وموضوعاتها، تحتاج إلى تأمل وتدبر ومعالجة وتفكر؛ ذلك أن هذه الدراسة تبحث في تآلف الفروع وارتباطها بالأصول، ولا شك في أن دراسة

---

(1) أسرار البلاغة للجرجاني ص7.

(2) روى الدارمي في سننه – ومن كتاب (23) فضائل القرآن، باب(13) : في فضل سورة البقرة – حديث:3376 ، 539/2: عن خالد بن معدان ، قال : "سورة البقرة تعلمها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة ، وهي فسطاط القرآن ".

(3) انظر: تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور للسيوطي ص63، 69.

(4) انظر: النسق القرآني دراسة أسلوبية لمحمد ديب الحاجي ص5.

النص وتأمله وفهمه وتفسيره على هذا النهج، يكشف معاني جديدة، وأسرار تليدة؛ تؤكد الإعجاز، وترسخ العقيدة، وتبين الشريعة، وتحقق الغاية؛ فتدحض المطاعن، وتئد الفتن، وتلبي الحاجات، وتعلي كلمة الله؛ فكانت غايتي في هذا البحث، وضع أسس يسير عليها الدارس، يمكنه من خلالها أن يكشف عن أسرار التناسق بين الآيات والسور، والانسجام بين سياقاتها، ويستجلي التآلف بين موضوعاتها، والترابط بين أغراضها، والالتحام في مقاصدها؛ حتى يوظف كل ذلك في الكشف عن مراد الله– ﷻ– من كلامه؛ ولأن البحث في نسق القرآن يتطلب النظر والتأمل والتدبر في وحدة النسق العام للقرآن الكريم، وذلك في ترتيب سوره وتناسبها وترابطها وتكاملها من جهة، وفي وحدة النسق الخاص للسورة، في نظم آياتها وتكامل سياقاتها، وترتيبها وارتباطها وتلاحمها مع غيرها من السور الكريمة، وقبل بدء البحث في هذا الموضوع، يتوجب علينا أن نبين معاني بعض المصطلحات والتمييز بينها.

1- التناسق الموضوعي:

النسق في أصل اللغة: التتابع، وكلام نسق: جاء على نظام واحد؛ عطف بعضه على بعض، تقول: ثغر نسق، إذا كانت أسنانه متناسقة متساوية(1)، أما الموضوع فهو من وضع؛ أي خفض وحط، ويطلق على الفكرة والقضية؛ لأن صاحبها يطرحها، ويخصها للنظر والنقاش(2)، والتناسق الموضوعي هو: تتابع القضايا، وانتظامها وترتيبها، وانتظام معانيها لخدمة المقصد والغاية، وعليه فإن التناسق الموضوعي للقرآن هو: نظام القرآن الكريم، وهو ذو شقين: التناسق الموضوعي للقرآن جملة، والتناسق الموضوعي لكل سورة من سوره الكريمة، والتناسق الموضوعي للسورة القرآنية هو المعنى الرابط بين موضوعاتها، وعلل ترتيبها، والذي يبرز التلاؤم والانسجام والنظام والتتابع بينها، أما التناسق الموضوعي للقرآن الكريم فهو المعنى الذي يبرز التلاؤم والانسجام والنظام والتتابع بين موضوعات السور، بعد تحرير مقاصدها وغاية كل سورة، والفرق بين التناسق الموضوعي والوحدة الموضوعية، هو أن التناسق الموضوعي يبحث في ترابط موضوعات السور والآيات، وانتظامها على ترتيب المصحف، ووجه التقديم والتأخير، وورودها مفرقة بين السور، والرابط بينها، أما الوحدة الموضوعية فهي البحث عن المحور الأساس الذي يربط موضوعات السورة، وتلتف عليه أغراضها نحو هدفها وغايتها، ومن هذا يتبين أن غاية البحث في الوحدة الموضوعية، هي كشف التلاؤم بين الموضوعات، وأن غاية البحث في الوحدة الموضوعية هي إبراز الهدف والغاية للسورة؛ فيتضح أن التناسق الموضوعي معين في الوصول إلى الوحدة الموضوعية؛ وعليه يكون بينهما عموم وخصوص؛ فكل وحدة موضوعية هي تناسق موضوعي، وليس كل تناسق موضوعي وحدة موضوعية(3).

2- الموضوعات والمقاصد والأغراض:

(1) لسان العرب لابن منظور ج4412/50.

(2) انظر: التعريفات للجرجاني ص:305 .

(3) انظر: التناسق الموضوعي في السورة القرآنية لمحمد بن عمر بن باز مول ص 9: 14.

وموضوعات السورة هي أغراضها، وهي مجمل المعاني التي اشتملت عليها، أما المقاصد فهي الغايات التي تهدف إليها، وترجع إليها موضوعاتها ومعانيها، وهي جامعة لأمور كلية تدور حولها السورة، يقول الفراهي في ضابط المقصد : " جماع مطالب الخطاب؛ فإليه مجرى الكلام وهو المحصول والمقصود "(1) (2).

3- التفسير الموضوعي والوحدة الموضوعية:

التفسير الموضوعي هو: دراسة الآيات المتفرقة ذات الموضوع الواحد، أما الوحدة الموضوعية فهي البحث عن الموضوع الواحد الذي يربط بين السور في القرآن الكريم، أو الآيات والسياقات في السورة القرآنية الواحدة، وعلى هذا تكون وحدة الموضوع مرتكزاً في التفسير الموضوعي، وغاية في الوحدة الموضوعية(3).

- دلائل وحدة النسق في القرآن الكريم:

1- إن أول من علمنا وأشار إلى وحدة النسق في القرآن الكريم، معلمنا الأكبر والمفسر الأول نبينا وحبيبنا محمد- ﷺ-، وذلك في وصفه لنا سورة الفاتحة بأم القرآن(4)؛ لاشتمال معانيها على جملة معاني القرآن وأنواع مقاصده، وفي وصفه لنا سورة البقرة بسنام للقرآن"(5)، وقد روي عن عثمان بن العاص أنه قال: "استعملني رسول الله- ﷺ- وأنا أصغر الستة الذين وفدوا عليه من ثقيف؛ وذلك أني قرأت سورة البقرة"(6)، وعلى هذا النهج في تدبر وتفكر القرآن الكريم، سار علماء الأمة؛ فقد جاء في الأثر أن خالد بن معدان وصفها بفسطاط القرآن(7)، وأشار السيوطي في كتابه تناسق الدرر في تناسب السور إلى الارتباط والتكامل والتناسق بين سورة الفاتحة وسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة(8).

2- القرآن الكريم هو كلام الله الذي أحاط بكل شيء علماً، خطاب على أبدع نظم، وأكمل بيان، وأقوى فصاحة، وأسمى غاية، وأعلى مقصد، وقد نبه- ﷻ- في أكثر من موضع، وبخاصة في فواتح السور إلى إحكام نظمه، وعلو مصدره، وعظمة المتكلم به؛ دفعاً للوساوس، ورداً للشبهات، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(9)، وقال في موضع آخر: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ

(1) دلائل النظام للفراهي ص 16.

(2) انظر : علم مقاصد السور لعبد الله بن ربيعة ص 8

(3) نظرية الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم لأحمد بن محمد الشرقاوي ص 73.

(4) روى مسلم في صحيحه – كتاب (4) الصلاة، باب (11)وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة- حديث: 35-394 ،184، عن أبي هريرة، عن النبي -ﷺ- أنه قال : "من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج" .

(5) روى الحاكم في مستدرك على الصحيحين – كتاب (27) التفسير، (2) من سورة البقرة- حديث: 3086، ص: 312 ، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -ﷺ- : "إن لكل شيء سناما ، وإن سنام القرآن: سورة البقرة".

(6) رواه البيهقي في دلائل النبوة - جماع أبواب غزوة تبوك، باب : تعليم النبي -ﷺ- عثمان بن أبي العاص - حديث:2052، 308/5.

(7) الحديث سبق تخريجه :ص:2.

(8) انظر: تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص 63، 64.

(9) سورة البقرة ، الآية : 2

خَبِيرٍ﴾(1)، وفي موضع آخر قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾(2)، وهذا دال على أنه على نسق معجز، لا تنافر فيه ولا تفكك، ولا خلل فيه ولا قصور.

3- ترتيب القرآن الكريم التوقيفي، وتقسيمه إلى سور على الوجه الذي بين أيدينا، هو منتهى الكمال في البيان والانسجام، وغاية الإحكام في الترابط والالتحام، مع أنه نزل مفرقاً على الوقائع والأحداث في ثلاث وعشرين سنة، وهذا دال على أنه فوق طوق البشر؛ إذ ما من كتاب بشري؛ إلا ويظهر فيه جلياً تأثر صاحبه بتباعد الأوقات، وتغير الظروف، فالسور الطوال المدنية المتأخرة النزول في أول المصحف، والقصار المكية المتقدمة النزول في آخره، وإن آخر ما نزل هو قوله- تعالى -:﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾(3) في أول المصحف في السورة الثانية (البقرة)، في حين إن أول ما نزل هو قوله- تعالى-: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(4) في آخر المصحف في السورة السادسة والتسعين (العلق)؛ بل إن من السور ما كان فيها المكي والمدني؛ فسورة الحج- مثلاً- مدنية، فيها أربع آيات مدنية، وهي قوله- تعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿52﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴿53﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿54﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾(5)، وسورة التوبة مدنية غير آيتين؛ وهما قوله- تعالى-: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴿128﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(6)، ومع كل هذا لا تجد ركاكة في النظم، ولا تفاوتا في الإحكام، ولا تخاذلا في التكامل؛ وإنما الكل على المنتهى والأسمى والغاية.

4- ومن أبرز الدلائل على نسق القرآن: التحدي في الإتيان بسورة من مثله، قال- تعالى -: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(7)؛ وذلك لأن ترابط الآيات وتآلفها، وتعدد السياقات وانسجامها، وتنوع الأغراض واتحاد مقاصدها، دون الحاجة إلى التبويب والتقسيم، هو إحكام مطلق، ونظم تام من لدن حكيم عليم، لا طاقة للبشر عليه.

(1)سورة هود ، الآية :1

(2)سورة الكهف، الآية: 1

(3) سورة البقرة، الآية :281 .

(4) سورة العلق،الآية : 1.

(5) سورة الحج.

(6) سورة التوبة.

(7) سورة البقرة ، الآية: 23

5- اختلاف السور بين طوال وقصار، ومئين ومفصل، والتباين في عدد آياتها، ووقوع هذا الاختلاف والتباين بأغراضه المتنوعة، وسياقاته المنسجمة، ومقاصده المتحدة، بين افتتاحيات منتهى البراعة في الاستهلال والإيجاز، وخواتيم غاية في الإجمال والفدلكة، وهذا النظم المستمر المعجز الذي لا تخاذل فيه ولا قصور، يكون في المئتي آية، وفي الأربعين آية، وفي الثلاث آيات؛ دال على وحدة النسق؛ وإلا لكانت السور متساوية في عدد الآيات والسياقات والأغراض.

6- ومن الدلائل على وحدة النسق في القرآن الكريم: تماسك سوره وتناسقها وانسجامها؛ فخاتمة كل سورة مناسب لافتتاحية ما بعدها، ومناسب لآياتها وسياقاتها وأغراضها؛ فسورة الفاتحة- مثلا- ختمت بطلب الهداية إلى سبيل الحق ﴿اهدِنَــا الصِّرَاطَ المستَقِيم﴾(1)، وتوقي طرق الضلالة ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾(2)، وافتتحت سورة البقرة ببيان أن الموصل إلى سبيل الحق والهداية هو القرآن الكريم، في قوله– تعالى-: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(3).

كما يظهر هذا التماسك والانسجام في ملاءمة اللفظ للمعنى، وحسن تنسيق الألفاظ، واللف والنشر، والمشاكلة والمطابقة، والوصل والفصل، وارتباط موضوعات السورة بمقاصد القرآن الكريم ومعانيه الكلية.

- فوائد دراسة النسق في القرآن الكريم (ثمرته):

لا جرم أن البحث في معاني كلام الله– ﷻ- وفق منهج يعتمد على دقة في النظر، وعمق في التفكير، يرتكز على استجلاء الترابط والانسجام بين الآيات والسياقات، وإظهار التكامل والالتحام بين الأغراض والغايات، له ثمرة عظيمة، وفائدة كبيرة، تهدي إلى فهم أدق، ومعنى أقوى، وترشد إلى ترجيح أليق، ومقصود أنسب لمراده – ﷻ – من كلامه، ومن هذه الفوائد:

1- إبراز الإعجاز في القرآن الكريم من جهة نظمه؛ ذلك أن سبك المواضيع المختلفة، والأغراض المتباينة، والمقاصد المتنوعة في نسق واحد، هو أعلى درجات البلاغة، ومنتهى غايتها، يقول محمد رشيد: "التفنن في مسائل مختلفة منتظمة في سلك موضوع واحد، هو من أنواع بلاغة القرآن، وخصائصه المدهشة التي لم تسبق لبليغ، ولن يبلغ شأوه فيها بليغ"(4).

2- إبراز الملامح المميزة للسورة القرآنية، وفهم روحها ورسم شخصيتها، وذلك من خلال استجلاء أسلوبها ومنهجها، ومجال تخصصها وغايتها، يقول سيد قطب: "إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية منفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص..."(5).

---

(1) سورة الفاتحة، الآية : 6

(2) سورة الفاتحة، الآية : 7

(3) سورة البقرة ، الآية :2.

(4) تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا 289/1.

(5) ضلال القرآن لسيد قطب 3/ 1243.

3- فهم القرآن الكريم بنظرة كلية شاملة، تعتمد على إبراز الارتباط بين الآيات، والالتحام بين السياقات، والوحدة في المقاصد والغايات، أعظم فائدة، وأكمل فهماً، وأتم معنى من دراسة الآيات منفردة، كالأحجار الكريمة تزداد بهاء، وتتوهج جمالاً، إذا انتظمت عقداً.

4- الوقوف على الدقائق واللطائف، كأسرار التكرار في القصص، ودقائق الألفاظ في الآيات المتشابهة في التعبير، والمناسبات الأقوى؛ وذلك لأن لكل سورة شخصية مميزة، وهدف خاص، له ما يناسبه من مشاهد القصة، ودروسها وعبرها، ولكل تعبير من التعبيرات المتشابهة ألفاظ وتركيبات، تلائم شخصية السورة، وتخدم هدفها.

5- الرد على شبه منكري الترتيب التوقيفي للقرآن الكريم، ومدعي الافتراق بين المكي والمدني؛ لأننا نجد في السورة الواحدة آيات مكية وأخرى مدنية، مترابطة منسجمة في ترتيبها، متماسكة محكمة في بنائها، ملتحمة في أغراضها وموضوعاتها، متوافقة في مقاصدها، ومتحدة في غايتها وهدفها.

6- تؤكد دراسة وحدة النسق أن القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه مع كثرة الرد؛ ذلك أن هذه النظرة الشاملة الكلية الدقيقة، تكشف دلالات مكنونة، وأسرار خفية، تهدي إلى معاني جديدة، وفهم أعمق، وترجيح أدق، وتفسير أنسب.

7- البحث في الارتباط والانسجام بين الأغراض والموضوعات، والتفافها على محاور، والتحامها في مقاصد، واتحادها في غايات وأهداف، يرسم الطريق الرباني القويم، والمنهج الإلهي السليم في الدعوة إلى الله، ونشر دينه وإعلاء كلمته.

قواعد دراسة النسق في القرآن الكريم:

لا شك في أن تدبر القرآن الكريم وتأمله- كوحدة متكاملة البناء، تامة التناسق- معين قوي، ومساعد مهم، له بالغ الأثر، وعظيم الفائدة في الكشف عن معانيه المرادة وتقريرها، ودفع التأويلات الدخيلة، وبيان وهنها، ولقد نبهنا الخالق- ﷻ - إلى أهمية هذا المنهج الشمولي في تدبر كلامه، حين حذرنا مسلك أولئك الذين آمنوا ببعض القرآن، وكفروا ببعض، من المشركين وأهل الكتاب، في قوله- تعالى-: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴿90﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴿91﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(1)، وإذا كان المفسرون القدامى قد شغلوا عن تأمله وتدبره من هذه الجهة، بالبحث والتأمل فيه من جهة الرواية والفقه والعقيدة واللغة والبيان، فإن مفسري هذا العصر اعتنوا بها عناية بالغة، وأولوها جل اهتمامهم؛ لما لها من ثمرة عظيمة، وفائدة كبيرة في الكشف عن المعنى المراد وتقريره؛ ولهذا كان من الضروري وضع قواعد وأسس، يسير عليها الباحث أو الدارس في التفسير، تكون منهجاً في دراسة وحدة النسق والوحدة الموضوعية، تعين على تدبر كلام الله- ﷻ- وفهمه على مراده.

إن دراسة النسق القرآني تعتمد أساساً على قراءة السياقات والموضوعات، قراءة بنائية متكاملة متناسقة متساندة، تبرز التكامل البنائي للموضوعات والأغراض، وارتباطهما بالمقاصد والغايات، وتظهر التناسب

(1) سورة الحجر .

اللفظي والمعنوي والصوتي، وأثره في السامع، وتكشف عن الترابط بين النصوص وامتداداتها، والانسجام بين السياقات وانتقالاتها، ولتحقيق هذه الغاية، وبلوغ هذا المقصد؛ على الباحث في دراسة النسق القرآني الأخذ بالآتي:

1- الإحاطة بمعنى السورة إجمالاً، وأغراضها وموضوعاتها وغايتها، وتدبرها قبل النظر في الترابط بين الأجزاء.

2- دراسة اسم السورة وفضلها، والخصائص التي انفردت بها، وسبب نزولها وتاريخه.

3- تحديد هدف السورة من معناها الإجمالي وغايتها، والكشف عن محورها الذي تدور عليه موضوعاتها، ووحدتها الموضوعية، ودراستها على أنها موضوع؛ وذلك بالتأمل في اسمها وفضلها وخصائصها وأغراضها ومقاصدها وتاريخ وسبب نزولها.

4- بيان تناسق السورة وتلاحمها مع غيرها من السور، وهو ما يعرف بعلم المناسبة بينها وبين سابقتها ولاحقتها، ووجه ارتباطها، واشتراكها مع غيرها من السور في المحور والأغراض والموضوعات، ثم ارتباطها بالمعاني الكلية، والمقاصد والغايات العامة للقرآن الكريم.

5- النظر في فاتحة السورة، وعلاقتها بموضوعاتها وأغراضها ومحورها وخاتمتها، وبيان وجه ارتباط فاتحة السورة بسابقتها، وخاتمتها بلاحقتها، وترابط وتشابك الكل.

6- تقسيم السورة إلى مقاطع وفقرات، وفق السياقات والأغراض والموضوعات الواردة فيها، وتاريخ نزولها، والوقوف على علل ترتيبها على النحو الذي جاءت عليه.

7- دراسة آياتها وسياقاتها وموضوعاتها وأغراضها ومقاصدها دراسة مقارنة، بالنظر والتدبر في: النظائر، والشبائه، والمخصص، والمبين، والمقيد، والناسخ، وهو ما يعرف بتفسير القرآن بالقرآن.

- أنواع النسق في القرآن الكريم:

تتنوع وحدة النسق في القرآن الكريم إلى ثلاثة أنواع: وحدة نسق عامة كلية جامعة لسوره، ووحدة نسق للسورة جامعة لآياتها، ووحدة نسق موضوعية، تربط بين الموضوعات المنثورة بين السور والسياقات.

أولاً: وحدة النسق العامة الكلية الجامعة في القرآن الكريم:

للقرآن الكريم غاية جامعة سامية، ضمنت مصالح العباد وسعادتهم في الدنيا والآخرة، انعكست في عموم مقاصده العالية، وتكامل أغراضه النبيلة، قال- تعالى -:﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾(1)، وقد أشار الشاطبي- رحمه الله – إلى أن فهم كلام الله- ﷻ- على مراده؛ إنما يكون بتدبر مقاصده، قال في الموافقات: "فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد"(2)، ونبه في كتابه الاعتصام إلى أن الجهل بها يوقع في الانحراف والخطأ عن مراده- ﷻ- من كلامه، فقال: "ومدار الغلط في هذا الفصل؛ إنما هو على حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها لبعض"(3)، هذه المقاصد نسجتها معانيه الكلية، وأساليبه المطردة، التي رسمت منهجه

(1) سورة الإسراء ، الآية :9 .

(2) الموافقات للشاطبي 4/ 209.

(3) كتاب الاعتصام للشاطبي 50/2.

الخاص، وروحه المميزة في الدعوة إلى الله، يقول ابن القيم– رحمه الله– : "للقرآن عرف خاص، ومعان معهودة، لا يناسبه تفسيره بغيرها"(1)؛ فلا يمكن فهمه على مراده– ﷻ– إلا بالوقوف على معانيه وأساليبه، وارتباطها بمقاصده، وإن كل تفسير لا ينسجم معها، هو دخيل مردود.

لقد نبهنا نبينا الكريم محمد– ﷺ– إلى وحدة النسق العامة الكلية في القرآن الكريم، الجامعة لسوره، في وصفه لسورة الفاتحة بأم الكتاب؛ وذلك لرجوع معانيه إليها، واشتمالها على مقاصده، يقول ابن جرير الطبري: "وكذا تفعل العرب، تسمي الجامع معظم الشيء: أما له"(2)، "فكل جامع أمر، ومقدم أمر لأمر، إذا كانت له توابع تتبعه، هو لها إمام جامع يسمى أما، وفي وصفه– ﷺ– لسورة البقرة بسنام القرآن: "إن لكل شيء سناما، وإن سنام القرآن: سورة البقرة"(3) وسنام كل شيء أعلاه(4)، وقد روي عن عثمان بن العاص– ﷺ– أنه قال: "استعملني رسول الله– ﷺ– وأنا أصغر الستة الذين وفدوا عليه من ثقيف؛ وذلك أني قرأت سورة البقرة"، كما أشار– ﷺ – إلى أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن في قوله: "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن"(5)؛ وذلك لأنها تضمنت التوحيد؛ فجمعت الأسماء والصفات، ولا شك في أن هذه الإشارات دالة على ترابط سور القرآن الكريم وتكاملها، وتتابعها وانتظامها على أعلى نسق، ومنتهى نظم، يقول ابن عاشور– رحمه الله– في تفسير سورة البقرة: "قد ضمت من وشائج أغراض السور، ما كان مصداقاً لتلقيبها: فسطاط القرآن"(6)، وقد اعتمد السيوطي على هذه الأساس في تأليفه لكتابه الذي وسمه بـ(تناسق الدرر في تناسب السور)، مبينا أن سورة البقرة جاءت مبينة وشارحة لما ورد في سورة الفاتحة، ثم فسرت السبع الطوال ما جاء في سورة البقرة(7).

وقد أشار ابن هشام إلى أن القرآن كله كالسورة الواحدة، فقد يذكر الشيء في سورة، وجوابه في سورة أخرى، مثاله: قوله– تعالى–: ﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(8)، جوابه قوله– تعالى–: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾(9)(10)، ومن الدلائل على وحدة النسق العامة الكلية في القرآن الكريم الجامعة لسوره، أن فاتحة الكتاب تضمنت: العقائد والعبادات، وطلب الهداية إلى الطريق الحق المستقيم، وتوقي طرق الضلالة، وكانت خاتمة المصحف بعد سوق الأدلة والبراهين، وضرب الأمثال وقص القصص، وبيان الأحكام

(1) التفسير القيم لابن القيم ص 269.

(2) جامع البيان لابن جرير الطبري 189/5.

(3) رواه ابن حبان في صحيحه – كتاب(7) الرقائق، باب(7) قراءة القرآن – ذكر تمثيل النبي –ﷺ– سورة البقرة من القرآن ، حديث: 780، 59/3.

(4) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري 409/2.

(5) رواه البخاري في صحيحه – كتاب(37) فضائل القرآن، باب(13) فضل : قل هو الله أحد – حديث:4730، 189/6.

(6) التحرير والتنوير لابن عاشور 1/ 203.

(7) انظر : تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي 63: 70.

(8) سورة الحجر، الآية : 6

(9) سورة القلم ، الآية: 2

(10) المغني اللبيب لان هشام 336/3.

والمعاملات، الوقوف على محض التوحيد في سورة الإخلاص، والاستجارة بالله من الضالين والمضلين؛ فكان التعوذ بالله من شياطين الإنس في سورة الفلق، والتعوذ من شياطين الجن في سورة الناس، هذه النظرة الشاملة للقرآن الكريم، والمستلهمة من هدي كلامه- ﷺ-؛ هي الأساس التي أقام عليه الشيخ سعيد حوّا نظرية الوحدة الموضوعية، والتي اتخذها منهجاً في تفسيره الذي وسمه بـ(الأساس في التفسير)، والذي يقوم على أن سورة البقرة تفصيل لسورة الفاتحة، وأن آيات وسياقات سورة البقرة هي محاور فصلتها السور الكريمة التي تلتها؛ فسورة آل عمران تتصل بالآيات الخمس الأولى من سورة البقرة، ووجه الاتصال: أن خاتمة سورة آل عمران هي قوله- تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(1)، جاءت موافقة لخاتمة الآيات الخمس في مطلع سورة البقرة، وهي قوله- تعالى-: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(2)؛ لاشتراكهما في وصف الفلاح، وسورة الإخلاص تتصل بسورة البقرة في قوله- تعالى-: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(3)؛ لاتفاقهما في موضوع إعلان وإعلام الكافرين بصفات الله- ﷻ-(4).

ثانيا: وحدة النسق الموضوعي:

ويبرز هذا النسق في تآزر وتكامل الآيات والسياقات المنثورة بين السور، التي تشترك في غرض، أو تتفق في قضية، أو تتحد في مقصد جامع أو معنى كلي، كالآيات الكريمة الواردة في العقيدة والأحكام والقصص، ولو تأملنا هذه الآيات المنثورة الواردة في قضية معينة؛ لوجدنا أنه لا تكرار فيها ولا انفصال؛ وإنما يكمل بعضها بعضا، وأن ما ورد منها في سياق ينسجم معه تمام الانسجام؛ ففي تحريم الخمر تضافرت وتآزرت وتكاملت الآيات في سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء وسورة المائدة؛ لترسم المنهج الرباني في الدعوة إلى الله، والتدرج في تنقية النفوس، وتهذيب الأخلاق، ففي قوله- تعالى-: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾(5) من سورة النحل، وصف الثمر بالرزق الحسن، وذكر الخمر مجردا من الوصف بالحسن، وهي إشارة فهمها بعض الصحابة-رضي الله عنهم- فأقلعوا عن تعاطيها، وفي قوله- تعالى-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾(6) من سورة البقرة، بين أن ضررها أكثر من نفعها، وهي إشارة فهمها بعض آخر من الصحابة-رضي الله عنهم-؛ فأقلعوا عنها، وفي قوله- تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾(7) من سورة النساء، نهى عن التلبس بها في حضرته، وكفى بها إشارة، وفي قوله- تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿90﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ

(1) سورة آل عمران ، الآية: 200

(2) سورة البقرة، الآية : 5

(3) سورة البقرة ، الآية : 28

(4) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوا 691/2 ،11/ 6751.

(5) سورة النحل، الآية : 67

(6) سورة البقرة ، الآية : 219

(7) سورة النساء، الآية : 43

بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُون﴾(1) من سورة المائدة، جعلها رجسا من الشيطان، وأمر باجتنابها رجاء الفلاح، مبينا أثرها على صلة العبد بربه، وعلى علاقته بإخوته، ناظما هذه الدرر المنثورة بين السور في نسق عال محكم، كشف عن إعجاز رباني في التربية النفسية وتهذيب الأخلاق، في اقتلاع رذيلة تأصلت في النفوس، وطمس علامة اعتادت عليها المجالس، وفي سورة الطور وسورة الإسراء وسورة هود وسورة يونس وسورة البقرة تضافرت وتكاملت الآيات والسياقات؛ لتسجل أنه معجزة فوق طوق الإنس والجن؛ ففي قوله– تعالى-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴿33﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾(2) من سورة الطور، تحدى المشركين في الإتيان بمثله؛ فعجزوا، وفي قوله– تعالى-: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(3) من سورة الإسراء، سجل عجز الثقلين (الإنس والجن) في معارضته، وفي قوله– تعالى-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(4) من سورة هود، خفض سقف التحدي إلى عشر سور في البلاغة والفصاحة، ولو كانت من أكاذيب الجاهلية؛ فعجزوا، وفي قوله–تعالى-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(5) من سورة يونس، أرخى لهم الحبل إلى سورة واحدة، ولو كانت ثلاث آيات، وفي قوله– تعالى-: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿23﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(6)، من سورة البقرة سجل عجزهم المؤبد؛ فتأمل كيف انتظمت الآيات والسياقات المنثورة بين هذه السور، في نسق محكم؛ لتثبت تكرار التحدي، وتسجل استمرار العجز، وتأمل كيف تكاملت وتلاحمت وتآزرت الآيات في سورة القيامة وسورة يونس وسورة الأنعام وسورة الشعراء وسورة المطففين؛ لتثبت رؤية المؤمنون لربهم يوم القيامة؛ ففي قوله– تعالى-: ﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(7) من سورة الأعراف، بين أن رؤيته– ﷻ- مستحيلة في الحياة الدنيا، وأفاد قوله– تعالى-: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(8) من سورة الأنعام عظمته- ﷻ- وأن أبصار المخلوقين قاصرة عن إدراكه، وفي قوله– تعالى-:

(1) سورة المائدة، الآية: 91

(2) سورة الطور، الآية : 34

(3) سورة الإسراء، الآية: 88

(4) سورة هود، الآية :13

(5) سورة يونس ، الآية :38

(6) سورة البقرة

(7) سورة الأعراف ، الآية :143

(8) سورة الأنعام ، الآية :103

﴿فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴿61﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(1) من سورة الشعراء، نبه إلى أن الإدراك هو الإحاطة لا النظر، وفي قوله– تعالى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴿ 22﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(2) من سورة القيامة، بين –ﷺ- أن المؤمنين يرونه يوم القيامة، وأكدها في قوله– تعالى-: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(3) من سورة يونس؛ إذ لا زيادة على الحسنى؛ إلا النظر إلى وجهه الكريم، وفي قوله– تعالى-: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(4) من سورة المطففين، عزل الكافرين عن هذه المقام، وتأمل كيف تكاملت وتلاحمت وتآزرت الآيات في سورة طه وسورة الأعراف وسورة النمل، التي كررت سرد مشهد من قصة موسى –عليه السلام-- يصف عصاه المعجزة عندما تتحول إلى صورة الإعجاز؛ لتفيد في كل موضع فائدة خلت منها المواضع الأخرى؛ فتتجسد في الذهن صورة المعجزة التي اجتمعت فيها الخوارق؛ فقد أفاد قوله– تعالى-: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾(5) من سورة طه ضخامتها، وأفاد قوله–تعالى-: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾(6) من سورة الأعراف خفتها ونشاطها وسرعة حركتها، وأفاد قوله– تعالى-: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾(7) من سورة النمل أنها مرعبة.

ثانياً– وحدة النسق في السورة الكريمة:

من سور القرآن الكريم ما أنزل جملة واحدة، ومنها ما نزل مفرقاً، وقد كان– ﷺ- يرشد أصحابه عند نزول الوحي، أن يضعوه في موضع كذا من سورة كذا(8)، وهذا يدل على أن من السور الكريمة، ما بدأ نزولها، ثم نزلت سور أخرى قبل استكمال الأولى، وهذا دليل على أن السورة نسيج تام، وبناء محكم، في منتهى الفصاحة، وعلى أبلغ بيان، أغراضها متباينة، وموضوعاتها مترابطة، وسياقاتها متناسقة، تؤلف أشرف مقصد، لتنسج أسمى غاية، وإن القارئ للقرآن الكريم، ينتقل بين سوره تلاوة وتدبراً، كالماشي بين روضات الجنات، ما إن يتلو فاتحة سورة؛ حتى يجد قلبه يطير شوقاً لما فيها، ولهفة إلى ما أشارت إليه من أغراض ومقاصد، فينتقل بين سياقاتها المتباينة، وموضوعاتها المختلفة بسلاسة لا خلل فيها، ولا انقطاع؛ كلما تدبر معنى، فهم مقصدا،

(1) سورة الشعراء .

(2) سورة القيامة .

(3) سورة يونس، الآية : 26

(4) سورة المطففين ، الآية :15

(5) سورة طه ، الآية: 20

(6) سورة الأعراف ، الآية :107

(7) سورة النمل، الآية :10

(8) روى الترمذي في سننه الجامع الصحيح - في أبواب تفسير القرآن عن رسول الله – ﷺ - باب (9) : ومن سورة التوبة ،حديث:3086، 166/5، عن عثمان : كان رسول الله – ﷺ- مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : "ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا " " وإذا نزلت عليه الآية فيقول : " ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا "

وأدرك غاية، وإذا تدبرها مجتمعة، وتأمل مآلاتها، وجدها تتآلف وتتآزر في هدف مشترك، وتلتحم وتتشابك في محور واحد؛ فإذا وصل إلى خاتمتها، بانت له الطريق، وظهرت الغاية، ووعى المعنى، وفهم المقصد، هذا البناء المحكم المحوري، المتناسق المعاني، المتماسك السياقات، هو نسق السورة وقد يطلق عليه بعض الدارسين الوحدة الموضوعية، ويعنون بها وحدة الهدف الذي تلتف عليه الموضوعات، لا وحدة الموضوع؛ لأن السورة قد تتناول أكثر من موضوع، وهو علم دقيق لم يشتغل به من المتقدمين إلا قليل، وإدراكه يعتمد على دراسة واستنباط المناسبات والمقاصد، وقد نبه الزركشي– رحمه الله– إلى أن الارتباط بين الآيات والسياقات في السورة قد يكون ظاهراً، وهو ما تعلق فيه الكلام بعضه ببعض، ولا يتم إلا بما بعده، أو أن يكون على جهة التأكيد أو التفسير أو الاعتراض، وقد يكون خفيا، تظهر فيه كل جملة مستقلة عن الأخرى، وعلى خلافها، ومنه العطف والاستطراد والتمثيل(1).

– وحدة النسق في سورة الحجرات:

هذه السورة تنوعت فيها الأغراض، وتباينت فيها الموضوعات، وتضافرت فيها الآيات، وتكاملت السياقات، واتحدت فيها المقاصد، نحو غاية سامية، هي تربية الأمة على سمو الأخلاق، وفضائل الأعمال، وعلو الهمم؛ لتتقلد منصب الخلافة، وتحمل لواء الدعوة إلى الله، وترفع راية الخيرية؛ فكانت مدرسة متكاملة، وعقدية تشريعية تربوية، وكما سبق وأشرت في قواعد دراسة النسق؛ فإن البحث في الوحدة الموضوعية للسورة يبدأ بالتدبر في: اسمها، وتاريخ نزولها، ثم النظر في أغراضها وموضوعاتها، ثم علاقة افتتاحيتها بخاتمتها وعلاقتهما بسياقاتها، ثم استنباط مقاصدها وكشف محورها وتحديد هدفها.

– الاسم أو التسمية: (الحجرات):

وهو ليس بتوقيفي؛ وإنما هو اصطلاحي؛ لورود اللفظ فيها، وأصل الحجر المنع، فيأتي بمعنى الممنوع، كما في قوله– تعالى–: ﴿وَقَالُواْ هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ﴾(2)، ويأتي بمعنى المانع أو الفاصل بين شيئين، كما في قوله– تعالى–: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾(3)، والحجر والتحجير: أن يجعل حول المكان حجارة، ولهذا سمي كل ما أحيط بالحجارة، حجراً، ومنه الحُجرة، وهي البقعة المحجورة، التي منعت أن يستعملها غير حاجرها، وتجمع على حجرات، بضم الحاء وفتحها(4)، وهي هنا بيت النبي– ﷺ– وكانت تسعاً، والحواجز بينها من جريد النخل، وعلى أبوابها مسوح من شعر، ومساحة كل حجرة سبعة عشر ذراعاً، قال الحسن البصري: "كنت أدخل بيوت أزواج النبي– ﷺ– في خلافة عثمان؛ فأتناول سقفها بيدي"(5)، وللوهلة الأولى لا تظهر علاقة

(1) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي 36/1: 40.

(2) سورة الأنعام ، الآية :138

(3) سورة الفرقان ، الآية : 53

(4) انظر: مفردات القرآن للراغب الأصفهاني 109 ، لسان العرب لابن منظور 11/ 781: 784.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان–باب (71) في الزهد وقصر الأمل ، فصل() في دم بناء مالا يحتاج إليه من القصور والدور ، حديث:10734 ، 397/7.

للاسم بأغراض السورة ومحورها وغايتها، وبخاصة أنه ليس بتوقيفي؛ لكن بالتدبر والنظر في أغراضها التي تضمنت الآداب والفضائل التي يجب أن يكون عليها المسلم مع خالقه- ﷻ- ومع رسوله- ﷺ- ومع أخوته المؤمنين، وتأمل غايتها؛ ألا وهي وضع أسس المجتمع الإسلامي النموذج، وما يجب أن يكون عليه ولاة الأمور، يتكشف لنا أن لهذا اللفظ (الحجرات) علاقة ارتباط وانسجام مع أغراضها، ودلالة اتحاد واتساق مع مقاصدها؛ فهو يصور لنا الواقع الحي، وينقل إلينا المشهد المثال للحياة البسيطة المتواضعة التي كان يعيشها- ﷺ- ولي أمر الأمة وقائدها، وأسوتها الحسنة؛ فمن جهة ارتباطه وانسجامه مع الأغراض، هو المنهج النموذج، والسلوك الأمثل لولاة الأمر من بعده، ومن جهة اتحاده واتساقه مع مقاصدها، هو توطئة لوضع أساس التفاضل في الإسلام، الذي ورد في هذه السورة في قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(1).

- تاريخ نزولها:

وهو مرتبط أشد الارتباط بموضوعاتها وأغراضها ومحورها وهدفها؛ فهي من آخر السور نزولاً، وقد روي أن بعض آياتها نزلت عام الوفود في السنة التاسعة للهجرة، بعد أن قويت شوكة الإسلام وتمكن الدين؛ ولهذا رسخت سياقاتها وموضوعاتها قيم وآداب المعاملات في مجتمع الإسلام، والتفت أغراضها ومقاصدها نحو تأسيس وبناء المجتمع الإسلامي النموذج، والحفاظ على تماسكه وتلاحمه وقوته.

- ترتيبها في المصحف (مناسبتها مع أخواتها من السور):

جاءت سورة الحجرات في ترتيب المصحف بعد سورة الفتح، وقبل سورة قاف، ولا شك في أن هذا الترتيب له دلالة:

- فأما مع سورة الفتح، فقد ذكر السيوطي- رحمه الله- أن تآخيهما كونهما مدنيتين مشتملتين على أحكام، فسورة الفتح في أحكام قتال الكفار، والحجرات في أحكام قتال البغاة، وقدم قتال الكفار لأنهم الأعظم خطراً على الأمة، وقد ختمت سورة الفتح بالثناء على محمد- ﷺ- وأصحابه، وذلك بوصف منهجهم في الحياة، وثوابهم عند ربهم في قوله- تعالى-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(2)، وافتتحت سورة الحجرات بنداء من لحق بركب النبي -ﷺ- وصحبته؛ قاصداً الوصول إلى منزلتهم والفوز بدرجتهم، أن يسير على خطاهم، ويحذر من المخالفات التي من شأنها أن تحيد به عن طريقهم، وتنحرف به عن منهجهم؛ فتحبط عمله، وتخرجه من دائرة الصحبة والإيمان؛ وذلك في قوله- تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾(3)، كما تضمنت سورة الفتح تشريف النبي- ﷺ- خاصة في قوله- تعالى-: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً

(1) سورة الحجرات ، الآية :13

(2) سورة الفتح ، الآية :29

(3) سورة الحجرات ، الآية :2

وَأَصِيلاً﴾(1)، وافتتحت الحجرات بتشريفه– ﷺ– والتنبيه إلى علو قدره ومكانته؛ وذلك بالأدب معه وفي مجلسه(2) ، وقد ذكر الشيخ سعيد حوا– رحمه الله– في تآخي السورتين: (الفتح– الحجرات) أن سورة الفتح حددت مهمات الرسول في قوله– تعالى–: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾(3)، ثم واجبات المرسل إليهم في قوله– تعالى–: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾، وجاءت سورة الحجرات مكملة لواجبات المرسل إليهم؛ فافتتحت بالأمر بطاعة الله ورسوله، والنهي عن الافتيات عليهما، ثم الأدب معه– ﷺ–(4).

– وأما مناسبتها مع سورة قاف؛ فقد بين الشيخ سعيد حوا– رحمه الله– أن سورة الفتح أشارت إلى أن المسلمين مؤيدون بنصر الله في قتالهم لأهل الكفر، وأرشدت إلى الغاية من هذا القتال، وهي إقامة شرع الله، وذلك في قوله–تعالى–: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾(5)، وجاءت سورة الحجرات لتبين أدب الجماعة في السير على شرع الله، ثم جاءت سورة قاف لتذكر وتعظ باليوم الآخر، وهو الغاية والهدف من كل هذا، كما جاء في سورة الحجرات الرد على أولئك الأعراب الذين ادعوا الإيمان، ظناً منهم أن هذه الحيلة تنطلي عليه– ﷺ–؛ ولكن الله– ﷻ– أخبره بما في قلوبهم، وهذا الظن متضمن إنكارهم نبوته– ﷺ– وإنكار ما أنذر به من البعث والجزاء، وبعد أن أرشدهم إلى الدواء والطريق الذي يشفي قلوبهم، ويبلغهم الإيمان الحق بطاعة الله ورسوله، افتتحت سورة قاف بالبرهنة على صدق دعوى نبوته– ﷺ –، ووقوع البعث والجزاء(6).

– وأما ارتباطها مع مجموعتها (الجاثية، الأحقاف، محمد، الفتح، الحجرات) فقد بين الشيخ سعيد حوا– رحمه الله– أن سورة الجاثية عممت معنى الاهتداء بالكتاب والسنة في قوله– تعالى–: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(7)، ثم عممت سورة الأحقاف معنى التوحيد في قوله– تعالى–: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿4﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴿5﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾(8)، ثم جاءت سورة محمد لتبين القتال الذي يترتب على إنكار الكتاب والسنة والتوحيد، بين أهل الكفر وأهل الإيمان، في قوله– تعالى–: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا

(1) سورة الفتح ، الآية :9.

(2) انظر :تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي 118.

(3) سورة الفتح ، الآية :8.

(4) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوا 5396/9.

(5) سورة الفتح ، الآية :28.

(6) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوا 5450/9.

(7) سورة الجاثية، الآية : 18

(8) سورة الأحقاف.

الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾(1)، ثم جاءت سورة الفتح لتبشر بنصر أهل الإيمان على الكفار في قوله-تعالى-: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾(2)، وقوله- تعالى-: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾(3)، وقوله- تعالى-: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾(4)؛ فكانت سورة الحجرات مبينة لأدب الجماعة المسلمة في السير على طريق تحقيق الغاية والهدف من كل ذلك(5).

ولأن عدم تمكن الإيمان والنفاق هو المناخ والوسط الملائم لتفشي تلك المعاملات السيئة، التي جاء النهي عنها في سورة الحجرات؛ فقد ارتبطت سورة الحجرات ارتباطاً قوياً مع سورة التوبة التي جاءت علاجا لظاهرة النفاق، وإصلاح المنافقين، وقد أشار الشيخ سعيد حوا- رحمه الله- إلى أن محاور الاتصال بين السورتين (الحجرات والتوبة) هي: اتفاقهما في الإشارة إلى رحمة الله- ﷻ-، ولطفه بعباده المسلمين، ورفع العنت والمشقة عليهم ففي سورة التوبة؛ قال- تعالى-: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(6)، وجاء في سورة الحجرات وقوله- تعالى-: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾(7)، واشتمالهما على بيان معنى صدق الإيمان؛ فقد ورد في سورة التوبة قوله- تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(8)، وجاء في سورة الحجرات قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(9)، وفي تنبيه السورتين إلى الفرق بين الإيمان الحقيقي والإيمان الظاهري، وذلك في قوله- تعالى-: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(10) من سورة التوبة، وقوله- تعالى-: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(11) من سورة الحجرات(12).

---

(1) سورة محمد، الآية :4.

(2) سورة الفتح ، الآية: 3.

(3) سورة الفتح ، الآية: 20

(4) سورة الفتح ، الآية: 27

(5) انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوا 5396/9، 5397.

(6) سورة التوبة ، الآية :128

(7) سورة الحجرات ، الآية :7

(8) سورة التوبة ، الآية :119

(9) سورة الحجرات ، الآية : 15

(10) سورة التوبة ، الآية : 97

(11) سورة الحجرات ، الآية :14

(12) انظر :الأساس في التفسير لسعيد حوا 9/ 5298.

ولأن سورة التوبة وسورة الأنفال لهما حكم السورة الواحدة؛ فهما متحدتي المحور، ويظهر اتصال سورة الأنفال بسورة الحجرات في اتفاقهما في غرض ترسيخ مبدأ الأخوة الإيمانية بين المسلمين، ومقصد ترسيخ روابط الأخوة والمحبة بينهم، وذلك في افتتاح سورة الأنفال بالأمر بإصلاح ذات البين في قوله– تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(1)، وفي الأمر بالسعي في الإصلاح، وإنهاء الاقتتال بين المسلمين، وتقرير الأخوة بينهم في قوله– تعالى–: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿9﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(2)، الوارد في سورة الحجرات، ويترشح من هذا كله أن الآيات الثلاث من سورة البقرة، وهي قوله– تعالى–: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(3)، وقوله– تعالى–: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾(4)، وقوله– تعالى–: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(5) من سورة البقرة، هي محور الاتصال المشترك للسور الثلاث: (التوبة، الأنفال، الحجرات)(6) .

– أغراض السورة:

جاءت سورة الحجرات مبينة معالم طريق الهداية إلى الله، واضعة أسس منهج التربية الربانية، التي تؤهل المسلمين ليؤدوا أمانتهم، ويبلغوا رسالتهم؛ فيكونوا خير أمة أخرجت للناس، فأكدت القيم والمبادئ التي ترسخ الأخوة الإيمانية، وتعزز أواصر المحبة والتعاون، محذرة من الآفات والملمات التي تضع الفتنة؛ فتفسد ذات البين، وتقطع الصلات، وتشق الصف، فتحيد بالأمة عن غايتها وهدفها، فتنزلق في الخلاف والاقتتال، وتغوص في التناحر والتشرذم، وتقبع في الضعف والمهانة، كما وصفت سورة الحجرات العلاج الشافي، وحددت الدواء الكافي للأمراض والأوبئة التي قد تصيب جسد الأمة فتوهنه، وسبل استدراكها قبل استفحالها وتفشيها، وتلافي نتائجها، فكانت مدرسة متكاملة لتربية الأمة، ومنهجاً تاماً في الدعوة إلى الله، وأغراض السورة التي حملت هذه المعاني هي:

(1) سورة الأنفال، الآية :1

(2) سورة الحجرات.

(3) سورة البقرة ، الآية :216

(4) سورة البقرة ، الآية: 217

(5) سورة البقرة ، الآية :218

(6) انظر :الأساس في التفسير لسعيد حوا 9/ 5398.

1- الأدب مع الله- ﷻ- ورسوله- ﷺ- بالتأكيد على الاحتكام إلى كتابه الكريم وسنة نبيه- ﷺ -، والتحذير من مخالفتهما وافتياتهما، وما يترتب على ذلك من انحراف عن جادة الهداية، وخروج عن سبيل الحق.

2- بث المحبة والتعاون بين المسلمين؛ ترسيخاً لمبدأ الأخوة، والتحذير من بواعث الانشقاق والاقتتال، وذلك بالتنبيه إلى الأسباب والإرشاد إلى سبل توقيها، ووصف المنهج السليم الصحيح لعلاجها، وتلافي نتائجها.

3- الأمر بالتحلي بأمهات الأخلاق، والفضائل التي من شأنها الارتقاء بالأفراد؛ ليكونوا خير خلف للإسوة الحسنة.

4- بيان معنى الإيمان الحقيقي، وأنه أساس التفاضل في النوع الإنساني.

- محور السورة وهدفها:

المتأمل في سياقات سورة الحجرات وموضوعاتها، يرى أنها تتلاحم وتتآلف وتنسجم في أغراض نبيلة، ومقاصد سامية، تتجه نحو هدف واحد، وتلتف حول محور أساس، تحقيقاً لغاية سامية، هي بناء المجتمع الإسلامي السليم النظيف، المؤهل للاستخلاف، القادر على حمل الأمانة، وأدائها على الوجه الذي يرضاه الخالق- ﷻ-؛ واضعة أسس منهج التربية الإلهية الخالدة، مرشدة إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة، كاشفة العوائق وأسبابها، كافلة الصيانة وأدواتها، ضامنة الثبات والاستمرار، فأكدت على مبدأ التمسك والاعتصام بالوحي الإلهي- الكتاب والسنة-؛ ضماناً للثبات على جادة الحق، وحفظاً من الزلل والانحراف، وأكدت على ترسيخ مبدأ الأخوة الإيمانية؛ ضماناً لوحدة الصف، وحفظاً من التشرذم والضعف والتخاذل، وأكدت على إقرار مبدأ العدل والمساواة بين جميع الناس؛ ضماناً لقبول الدعوة إلى الله وانتشارها؛ وتوقيا من العجب وقطعا للظلم.

- الافتتاحية والخاتمة:

افتتحت سورة الحجرات بالنهي عن نهج طريق غير طريق الله، والتحذير من الانحراف عنه، قال- تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(1)؛ فأكدت وقررت ورسخت أن أصلي التشريع هما: كتاب الله- ﷻ- وسنة نبيه- ﷺ -؛ وأن طاعة الله- ﷻ- وطاعة رسوله- ﷺ - هي حقيقة الإيمان؛ توطئة للامتثال للأوامر والنواهي الواردة في السورة؛ وذلك للإقلاع عن تلك المعاملات من موروثات الجاهلية التي طبعت عليها النفوس، فكانت افتتاحية السورة إجمالاً لما ورد فيها، وهذا من براعة الاستهلال، ولأن الامتثال للأوامر والنواهي، والعمل بمقتضاها يعتمد على الخضوع والانقياد القلبي، اختتمت السورة بقوله- تعالى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(2)؛ تنبيهاً إلى أن الله- ﷻ- يعلم ما انطوت عليه النفوس، وما تخفي الصدور، فكانت الخاتمة؛ حثا وزجرا، وترغيبا وترهيبا.

- الوحدة الموضوعية لسورة الحجرات :

(1) سورة الحجرات ، الآية :1

(2) سورة الحجرات، الآية : 18

اشتملت سورة الحجرات على أغراض متنوعة، وموضوعات متباينة؛ فقررت في افتتاحيتها أصول الإيمان والإسلام (الكتاب والسنة) في قوله– تعالى–: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(1)، وأكدت على ذلك بالتزام الطاعة والأدب مع النبي– ﷺ- مبلغ الكتاب، وصاحب السنة، ومعلم الأمة ومرشدها، ثم انتقلت إلى ترسيخ مبدأ الأخوة الإيمانية مبينة، ومؤكدة على المنهج الرباني في بناء وعلاج المجتمع المسلم، وختمت ببيان معنى الإيمان والإسلام والفرق بينهما، وقد يظن للوهلة الأولى أن هذه الأغراض ذات موضوعات متفرقة متباينة ومختلفة؛ لكن المتأمل فيها يرى أنها أغراض تتشابك فتلتحم، وتجتمع فتتفق في معالجة موضوع واحد، تفرعت منه موضوعات متعددة في سياقات مترابطة، ومقاصد متكاملة، يؤسس سابقها للاحقها، ويؤكد تاليها لأولها، ويقرر المتأخر منها المتقدم، وبالنظر في هذه المقاصد وتأمل الأغراض، وتصور ثمرتها، وتأمل فائدتها، نرى أنها تتكامل وتترابط، وتجتمع وتلتف، متجهة نحو هدف واحد هو: بناء المجتمع الإسلامي، وذلك في وضع دستور؛ يبين الحقوق والواجبات للأفراد والجماعات، ويرشد إلى الآداب، ويحدد المعاملات، التي ترسم ملامح هوية الأمة التي وصفها– ﷻ- بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾(2).

- سياق السورة:

قسم الشيخ سعيد حوا– رحمه الله– سياق سورة الحجرات إلى سبع فقرات؛ يضمها مقطع متحد، هذه الفقرات هي:

1- الفقرة الأولى: وتشمل الآية الأولى وهي قوله– تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(3)، وقد قررت هذه الفقرة أن مصدر التشريع هو الكتاب والسنة، وحذرت من مخالفتهما والافتيات عليهما، ووجه ارتباطها بسورة الفتح التي تحدثت عن القتال؛ تنبيه المسلمين إلى الالتزام بالضوابط والآداب والمعاملات التي جاءت في الكتاب والسنة في شأن الاقتتال والحروب، فقد سجلت سورة الفتح صلح الحديبية، الذي اشتمل على بنود رأى المسلمون أنها مجحفة في حقهم، وخفيت حكمته عليهم؛ فكان تقديم هذه الآية حجة وبرهانا على صدق دعواه– ﷺ-، وحثا على طاعته، وقد جاء في سياق آية محور سورة الفتح، التحذير من اتباع خطوات الشيطان في قوله– تعالى-:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(4)، ومن خطوات الشيطان اتباع الهوى، ومخالفة الكتاب والسنة(5).

2- الفقرة الثانية:

(1) سورة الحجرات ، الآية :1

(2) سورة آل عمران ، الآية :110

(3) سورة الحجرات ، الآية: 1

(4) سورة البقرة ، الآية :208

(5) انظر : مفاتيح الغيب للفخر الرازي 110/28، تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي 118، الأساس في التفسير لسعيد حوا 5400/9، التحرير والتنوير لابن عاشور 2015/26.

وتبدأ من الآية الثانية إلى الآية الخامسة، وهي قوله– تعالى–: ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴿2﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴿3﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴿4﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(1)، وقد قررت وجوب الأدب مع الله ورسوله بالتحذير من رفع الصوت في حضرة النبي– ﷺ–، ولا يخفى ارتباطها بما قبلها؛ وذلك لأن رفع الصوت من التقدم على الكتاب والسنة، ثم أثنى– ﷻ– على الغاضين أصواتهم في حضرته– ﷺ–، وعقبه بتقبيح وتهجين الصياح، وذيلت الفقرة بإرشاد المخالفين إلى العلاج، ووصف الدواء وهو الصبر والتعلم من الصحابة– ﷺ–؛ ولأن سورة الفتح تحدثت عن القتال التي يطرح في النفوس الفضاضة والغلظة والجفاء؛ فيطبع فيها سوء الأدب مع قائد الجيش، ذكرهم– ﷻ– هنا بوجوب الطاعة، والتزام الأدب اتجاه قائدهم ومعلمهم– ﷺ–(2).

3– الفقرة الثالثة:

وتبدأ من الآية السادسة إلى الآية العاشرة وهي قوله– تعالى–: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴿6﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴿7﴾ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿8﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿9﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(3).

ابتدأت بالتحذير من اعتماد خبر الفاسق؛ لما يترتب عليه من قطع الصلة بين جماعة المسلمين، وتمزق وحدتهم وتماسكهم، ونبهت إلى أن النبي– ﷺ– أعلم بمصالح المسلمين وأشفق عليهم من أنفسهم، ورأيه أصوب رأي وأتم؛ فعليهم تعظيمه وتوقيره وطاعته، وذكرت بأن نعمة الإيمان من أكبر النعم؛ وذلك لأنها ترشد إلى كل ما يرضيه، وتبعد عن كل ما يسخطه، ثم حثت على الإصلاح بين المسلمين عند حصول الشقاق والاقتتال، مشيرة إلى أن الأصل بينهم التعاون والسلام والمحبة؛ لذا رتب العلماء لقتال البغاة أحكاماً خاصة، ولا يخفى الترابط بين التحذير من خبر الفاسق والأمر بالصلح بين المتقاتلين؛ لأن اعتماده من أسباب الاقتتال، وتتصل هذه الفقرة بسورة الفتح في حث المسلمين على المحبة والتراحم والتعاون، وذلك في وصف النبي– ﷺ– وأصحابه– ﷺ– في قوله– تعالى–: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ

(1) سورة الحجرات .

(2) انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي 350/18، التحرير والتنوير 219/26.

(3) سورة الحجرات.

وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(1) (2).

4- الفقرة الرابعة:

وتشمل الآيتين الحادية والثانية عشر، وهما قوله– تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴿11﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(3)، وقد حذرت هذه الفقرة من جملة من الأخلاق والمعاملات، التي تبذر الحقد والكراهية والضغينة في المجتمع المسلم؛ فنهت عن السخرية واللمز والتنابز والظن والتجسس والغيبة، ولا يخفى ترابطها بما قبلها؛ فقد افتتحت السورة بما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون مع الله ورسوله، ثم مع من يخالفهم من الفساق والعصاة، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن؛ فبعد الأمر بالإصلاح بين المتقاتلين وتأكيداً مبدأ الأخوة الإيمانية، جاء في هذه الفقرة التنبيه والتحذير، مما يضعف هذه الرابطة ويقطعها، ويؤكد هذا ورود لفظ الأخوة في آخر الفقرة السابقة في قوله– تعالى-: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وفي آخر هذه الفقرة في قوله– تعالى-: ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾(4).

5- الفقرة الخامسة:

وهي الآية الثالثة عشرة، وهي قوله– تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(5).

وقد أكدت مبدأ الإخاء الإنساني، ووحدة الأصل البشري؛ فأزالت كل المعايير، وأسقطت كل الموازين؛ إلا ميزان القيم والأخلاق، وقررت أفضلية التقوى والعمل الصالح، ولا يخفى ترابطها بما قبلها؛ فهي انتقال من واجبات المعاملات إلى ما يجب أن يراعيه المؤمن في نفسه، فبعد تأكيد مبدأ الأخوة الإيمانية، جاء بعد تأكيد مبدأ الإخاء الإنساني، كما أنها جاءت بعد النهي والسخرية والتنابز والاستهزاء والطعن واللمز والظن والغيبة؛ لتقرر أن الحكمة من خلقهم التعارف لا التنافر والتكبر، ومجيؤها في سياق الحديث عن القتال؛ لأن معظم الحروب تنشأ بسبب نظرة فوقية لأمم تحتقر أمماً أخرى(6).

---

(1) سورة الفتح ، الآية : 29.

(2) انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي 370/18،التحرير والتنوير لابن عاشور238/26، الأساس في التفسير لسعيد حوا5410/9.

(3) سورة الحجرات.

(4) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي 131/28،نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي 374/18، الأساس في التفسير لسعيد حوا 5416/9.

(5) سورة الحجرات ، الآية :13.

(6) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي 136/28، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي 381/18، التحرير والتنوير لابن

6- الفقرة السادسة:

وتبدأ بالآية الرابعة عشرة إلى الآية الثامنة عشرة، وهي قوله– تعالى-: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿14﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴿15﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿16﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿17﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(1)، والحديث عن الأعراب هنا مكمل للحديث عنهم في سورتي الفتح والتوبة، ووجه ارتباطها بما قبلها؛ أنها نبهت إلى أن ادعاء الأفضلية بالمن علامة على فساد الإيمان، وهو تأكيد لمبدأ الأفضلية بالتقوى والعمل الصالح الوارد في الفقرة السابقة؛ فقد نبهت الآيات الكريمة هنا إلى إن الخروج من محاربة المسلمين، وترك معاداتهم والدخول في الإسلام، لا يكفي للوصول إلى مقام الإيمان، ولا يعني أنهم في دائرة النفاق؛ وإنما يدل على عدم تمكن الإيمان، ثم أرشدت إلى طريق الوصول إليه، ومقام التمكن، وهو طاعة الله– ﷻ– ورسوله– ﷺ–، مؤكدة أن الإيمان الحقيقي هو الثبات على الطاعة والإخلاص والتصديق، ومرشدة إلى أن الضابط والضامن للثبات عليه هو مراقبة الله– ﷻ– وتقواه، وهو مقام الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، وذلك في الإشارة إلى أن الله يعلم غيب السموات والأرض(2).

-الخاتمة:

وبعد هذا العرض لوحدة النسق القرآني، الذي أبان أهميته البالغة في الكشف عن معاني القرآن الكريم، واستجلاء مقاصده، وفهم على مراده– ﷻ–؛ فإن أهم النتائج التي توصلت إليها:

1- الإحاطة بوحدة نسق القرآن الكريم معين قوي لكشف معانيه، وفهمه على مراده– ﷻ–، حافظ من الزيغ، عاصم من الانحراف عن المنهج السليم في التفسير.

2- إن وحدة النسق في القرآن الكريم خصيصة من خصائصه التي تكشف عن إعجازه في:

- إحكام نظمه، بترابط سوره، وتشابك سياقاتها، وتلاحم آياتها.

- وحدة بنائه: في اتحاد مقاصده، وعموم معانيه، وتكامل موضوعاته.

3- البحث في وحدة نسق القرآن الكريم يعتمد على دراسة علمي: المناسبة والمقاصد؛ لأنهما السبيل إلى استجلاء ترابط أجزائه واتحاد مقاصده.

عاشور 258/26، الأساس في التفسير لسعيد حوا 4581/9.

(1) سورة الحجرات .

(2) انظر : مفاتيح الغيب للفخر الرازي 141/28، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي 385/18،الأساس في التفسير لسعيد حوا 5420/9.

4-وحدة النسق في القرآن الكريم لا تعني أن السورة مؤكدة، أو مبينة، أو مفصلة لمحور سورة فحسب؛ وإنما هي مع ذلك تميزت بأغراض، واختصت بمقاصد؛ ميزتها عن غيرها، واتجهت نحو هدف أبان روحها، وانفردت باسم حدد ملامح شخصيتها.

5- دراسة الوحدة الموضوعية للسورة لا تعتمد على تسلسل المناسبة بين سياقاتها وآياتها؛ وإنما النظر إلى السورة على أنها جامعة لمعانيها المتباينة، تندرج تحتها موضوعات متفرعة، وأغراض متنوعة.

6- البحث في الغرض المحوري للسورة يعتمد على الإحاطة بتاريخ نزولها، وسببه، ومناسبة مقدمتها وخاتمتها بسياقاتها، وأغراضها ومقاصدها، والتمييز بين الرئيس منها، والمتفرع عنه، والمعاني التي انجر إليه السياق للتتميم أو التفريع أو التنظير، ثم استجلاء الروابط بين المعاني الجزئية للوصول إلى المعنى المشترك، والحمد لله رب العالمين.

-أهم المصادر والمراجع:

1. الأساس في التفسير لسعيد حوا، ط1، 1405هـ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر.
2. البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، 1404هـ، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر.
3. التحرير والتنوير لابن عاشور، ط، 1984م، الدار التونسية للنشر، تونس.
4. تفسير القرآن الحكيم، الشهير باسم تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، ط2، 1366هـ، دار المنار، القاهرة، مصر.
5. تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي، تحقيق: عبد القادر عطا، ط1، 1406هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
6. علم مقاصد السور لمحمد بن عبد الله الربيعة، ط1، 1432هـ، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة العربية السعودية.
7. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، ط1، 1404هـ، القاهرة، مصر.
8. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، ط1، 1404هـ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر.
9. وحدة النسق في السورة القرآنية لرشيد الحمداوي، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الثالث، 1428هـ، جدة، المملكة العربية السعودية.